د. محمد عدنان البخيت

نقولا زيادة في مائة عام 1907-2007م

آخر زيارة لي في بيته، قال بشكل لافت للنظر إنه لا يطلب من أي دولة أن تقدم له بعد وفاته وساما لأنه لن يكون بمقدوره أن يرده

■ كُنتُ في مطلع شهر آذار من هذا العام في بيروت وكما جرت العادة قد زُرت أستاذي المُعلم نقولا زيادة في شقته المشرفة على سواحل بحر العطاء الحضاري. وجلستُ مع زميل لي بحضرته نرتوي من علمه المتجدد على الدوام وواسع معرفته يرويها لنا بذاكرة لا تغادر شاردة ولا واردة إلا وتجيء عليها، وأمتعنا بالحديث عن المواضيع التي يكتب فيها والكتب التي ترجمها والدراسات التي يعدها وذلك بأسلوبه الذي اعتدنا عليه، كل ذلك مع سحر الدعابة المفعمة بالسخرية المعهودة فيه والمُحبّبة إلينا في خطابه. واستأذناه بالانصراف بعد أن قبّلنا جبينه العالي، وطلب إليَّ إبلاغ تحيّاته لأصدقائه وتلاميذه في الأردن، وبالكاد نسيَ اسماً واحداً منهم على كثرتهم، وطلب منّا أن نزوره في المرة القادمة، وصادف يوم الأحد الماضي الثاني من شهر كانون الأول ذكرى ميلاده المئوي فاحتفلت بهذه الذكرى أسرته مع الجامعة الأمريكية ببيروت في ذلك الصرح العلمي العريق الذي عرف المُعلم نقولا زيادة أستاذاً ومؤلفاً ومؤرخاً وخطيباً ومُناقشاً ومحاوراً لمدة تزيد على نصف قرن من الزمان، شابَ فيها وما شيّبته المنابر. أذكرُ أن أول لقاء لي بأستاذنا زيادة، كان في مكتبه بالطابق الرابع من مبنى الـ(College Hall)، وأذكرُ أن مكتبه كان يُطل على البحر الأبيض المتوسط، وكانت غرفته مكتظة بالكتب حتى افترشتْ الأرض، وكان على الزائر أن يُحرّك شيئاً منها ليجد لنفسه مكاناً للجلوس. وما زلتُ أذكر أنه كان يعلق بيتين من الشعر لبشار بن برد (ت 166هـ/783م)، على أعلى الجهة اليُمنى من الجدار المواجه للداخل، وهما:

إذا كُنتَ في كلِّ الذنوبِ مُعاتباً
صديقَك لم تلقَ الذي لا تُعاتبه
إذا أنتَ لم تشربْ مِراراً على القذى
ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربه

وكلّما كُنتُ أقرأُ البيت الثاني أشعرُ باستغراب شديد وأتساءلُ في نفسي: ما الذي دعا أستاذنا المرحَ ليُعلقَ هذين البيتين؟ هل يعكسان نتاج تجربة حياته أم أنها فلسفة حياة أم الأمران معاً؟ والسؤال اللاحق: ما الذي جمع أستاذنا الدمشقي المولد وابن الناصرة العريق والغسّاني المحتد وهو من سمق الرجال في حُسن القامة والطلعة ومن أهالي شمّ الأنوف مع بشّار بن برد الذي انتسب إلى قريش العجم؟ هذا الغسّاني الوضاء الوجه ما الذي يجمعه مع مولى بني عقيل ذميم الخلقة، إنها بلا شك تجربة الحياة لمن جرحته الأيام بأنيابها وبسيوفها ولكنه بجهده وكدّه استطاع أن يقتلع أنياب الدهر وأن يرد السيوف إلى أجفانها وأن يعلو فوق الجراح.

يقول نقولا زيادة عن حاله إنه مُتصالحٌ مع نفسه وأنه يسعى دائماً وأبداً من أي مكان يقف فيه إلى أن ينظر إلى الأمام ويتابع المسير، وأؤكد وأقول إن إنجازاته وما حققه بفضل عصاميته لم تجعل منه إنساناً حانقاً حاقداً على المجتمع وأبنائه، بل جعلته دائماً وأبداً مُبتسماً معطاءً، أو كما سمّى نفسه: كرماً على درب، فهو على الدوام متواضعٌ ولكنه أيضاً حريصٌ على كرامته ولا يسمحُ لأحد أن يمسّها بسوء، وكانت لديه القدرة الفذة على التواصل بوداعة مع الناس كل الناس من دون إقصاء أو تمييز، بلسان عربيٍّ مُبين يتدفق كالسلسبيل دون تكلف وتزلف ومثل هذه المقدرة باللغة الإنجليزية. وأهّلته سياحاته العلمية في البلاد العربية لاستيعاب الموروث الحضاري الذي تكتنزه مختلف اللهجات في البلاد العربية وديارتها. من هنا كان تميُّزه في تناوله للجغرافية التاريخية للبلاد العربية بعامّة وبلاد الشام بخاصّة، لأنه كان، ولآخر أيامه يرحل في بلاد الله الواسعة ليتعرّف على أهاليها ويدوّن دقائق الأمور الحياتية عن مظاهر الحياة في كل بلد يزوره على قدميه أو على دراجة هوائية بسيطة، أو باستخدام وسائل النقل الحديثة. وأفصحت هذه المعرفة المتراكمة عن نفسها عبر مئات المقالات والبحوث وعشرات الكتب التي وضعها، بالإضافة إلى الأحاديث الإذاعية والتلفازية التي كان يقدمها للمستمعين وللمشاهدين، فكان حاضراً على الدوام مع عامة الناس، وكانوا بالنسبة له أقرب خلق الله إلى نفسه الرضيّة، وكنتُ كلما أصغي للصحافي البريطاني المشهور ألستر كوك (Alister Cook) في رسالته الأسبوعية صباح كل يوم أحد من أمريكا، أتذكر براعة أستاذنا نقولا في فن التواصل مع الناس. ولم يصرف الأستاذ نقولا عمره في التقرّب إلى علية القوم والتملّق لهم. وأذكر أنه في آخر زيارة لي في بيته، قال بشكل لافت للنظر إنه لا يطلب من أي دولة أن تقدم له بعد وفاته وساماً لأنه لن يكون بمقدوره أن يردّه، والمعروف أنه اتخذ من التعليم حرفة له تدرّج في سلكها من المرحلة الابتدائية إلى أن ارتقى إلى أرفع الرتب الجامعية حين كان يمنح درجة الدكتوراه للطلاب، لذا أشرف ورعى سيلاً متدفقاً من أجيال متواصلة من الطلاب على مدار نصف قرن من الزمان تقريباً، وكان دوماً في سيرورة تكيُّف وتكييف علماً ومهارة مع كل المستجدات العلمية والاجتماعية ومع كل أنماط الحياة وحراكها الاجتماعي، مع التزامه الكامل بقضايا أمّته وحاجاتها، فكان بإمكانه أن يهاجر وأسرته إلى بلاد الغرب، ولكن انتماءه الصادق لأمته العربية التي أحبّها والتزم بقيمها وحمل مشعل رسالتها في صيغها العروبية النقية الصافية منعه عن مثل هذا القرار - هذا أولاً.

الأمر الثاني المُميّز لأستاذنا أنه أرّخ للعادات والتقاليد والظواهر اليومية في حياتنا، فقد عاصر قرناً من الزمان وأرّخ له ولم يقصر همّه على كتابة تاريخ العرب، بل كتب عن العرب الذين عايشهم بأسلوب سهل ممتنع ومفيد.

ثالثاً: كان يحافظ دائماً وأبداً على الروح المرحة والحسّ بالدعابة والتداوي بالنكتة، وكان عفا في قوله ولا يغمس قلمه في الحبر الفاسد ولا في نهش أعراض الناس، أحبَّ الناسَ وأحبَّ الحياة فأنست به الحياة وأحبّه الناس. كان رحمه الله وافر الإنتاج العلمي في كل الحقول والحقب والتخصصات، يساعده على ذلك سعة الاطلاع وقوة الذاكرة والقدرة على الصياغة باللغتين العربية والإنجليزية بكل يُسر وسهولة، ومن حسن الحظ أن ولديه يقومان الآن بإصدار مجموعة الأعمال الكاملة لوالدهما وكان يُشرف على إصدار الكتب التي يُحررها باللغة الإنجليزية مع مؤسسة (Longmans)، وكانت مقالاته منتظمة في الصحف اليومية، مثل: لسان الحال البيروتية أو الرأي الأردنية أو الحياة اللندنية، وحرص قبل وفاته على ألا يترك قرّاءه دون مادة يقرأونها، فأودع جريدة (الحياة) وكذلك جريدة (النهار) مجموعة من المقالات لتنشر بعد رحيله عن دُنيانا الفانية ليبق الجميع ينهل من أدبه وعلمه، وربما كان أول مؤرخ من بلاد الشام الذي عُني بتاريخ شمالي إفريقيا، وبخاصة بعد أن عمل في سلك التعليم في ليبيا فكتب عنها وعن تونس والجزائر والمغرب وإفريقية جنوبي الصحراء، وزار جميع البلاد العربية باستثناء اليمن، وكان يشعر في كل بلد عربي أنه في بلده لأنه لم يتحزب ولم يعتنق فكراً أحادياً يخنقه في قالب واحد من التنميط الفكري.

سلامٌ عليكَ أستاذي نقولا في ذكرى ميلادك المئوي، السلام عليكم آل زيادة، والسلام عليكم أصدقاء ومُحبّي أبي الرائد، سنفتقدك كثيراً وسنبقى نحبك أكثر، وأن بيروت أيقونة الشرق ودُرّة الدنيا ستبكيك أكثر لأنها تعرف بحسّها المرهف معنى غياب الكبار عنها ■